المحاضرة الرابعة

عنوان المحاضرة:

ب- الخلافات السياسية والمواجهات العسكرية

B- Political differences and military confrontations

٣- الغزو السوفيتي لتشيكوسلوفاكيا 3- The Soviet invasion of Czechoslovakia

ثالثاً: الخلاف حول برلين Third: The dispute over Berlin

محتوى المحاضرة:

ب- الخلافات السياسية والمواجهات العسكرية

كان للخلاف الصيني السوفيتي امتدادات أخرى وإن بَقِي العنصر الايديولوجي، المُحَرك لهذا الخلاف فقد على الصين على امتلاك السلاح النووي وذلك للتقليل من الاعتماد على الاتحاد السوفيتي في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها الإقليميين.

ومنذ عام ١٩٦٠ بدأت الخطوات الأولى لتحقيق هذا الهدف والذي تَحَقَق بشكل عملي في تشرين أول عام ١٩٦٤ عندما نجحت الصين في إحداث أول تفجير نووي تحت الأرضي لتصبح منذ ذلك التاريخ همَّاً مهماً في الحسابات الأمريكية، فضلاً عن السوفيتية.

ان القوة العسكرية الصينية قد أعطت دفاعاً لآرائها وطروحاتها في مواجهة الأفكار والتوجهات السوفيتية، إلى درجة جعلت ماو يرفض أي محاولات للتنسيق والتعاون في المشكلات الإقليمية، ولاسيما المشكلة الفيتنامية، إذ كان رد ماو على المحاولات السوفيتية لتنسيق المواقف معه (بصراحه إني لا اثق بكم).

أما ما يتعلق بالسياسة الخارجية السوفيتية فقد انتقدت الصين التقارب السوفيتي اليوغسلافي وعدَّته تحالفاً لتحريف (النظرية الماركسية – اللينينية) كما انتقدت الصين العزو السوفيتي إلى جيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، إذ وصف ماو منطق التدخل السوفيتي بأنه (منطق متطرف لقطاع الطرق يتصف به القياصرة الجدد لتبرير عدوانهم).

في عام ١٩٦٩ انتقلت المواجهة الكلامية إلى صدامات عسكرية فعليه على الحدود بين البلدين وكان السبب المعلن لهذه الصدامات هو النزاع حول مناطق حدودية يدَّعي كلا الطرفين عائديتها له، إلا أن المتتبع يعرف جيداً أن المشكلة كانت أعمق من نزاع حدودي.

ففي آذار من ذلك العام قتل (٣١) روسياً وعدد آخر من الصينيين في مواجهات عسكرية مباشرة حول جزيرة (داما تسكي) المتنازع عليها وجرى المزيد من القتال في ١٤ آذار، وصدرت تهديدات عنيفة عن السوفيت محذرين الحكومة الصينية بأن (الاتحاد السوفيتي يمتلك ترسانة مليئة بالصواريخ النووية فما لدى ماو وأذنابه لمقاتلتنا لا شيء).

في ٢٨ آب أصدر الحزب الشيوعي الصيني بياناً دعا فيه أبناء الشعب الصيني للاستعداد للحرب وبناء الملاجئ النووية، فيما حَشَّد المزيد من القوات المسلحة على الحدود ففي كانون أول ١٩٦٩ كان هناك أكثر من (٦٥٠) ألف جندي سوفيتي مدعومين بـ (٦٧٥) دبابة من نوع (T62) مقابل (٨٠٠) الف جندي صيني صحبة (٢٠٠٠) دبابة نوع (T52) فيما بقيت الصواريخ السوفيتية النووية في منغوليا في حالة تأهب وهي على مقربة من المنشآت النووية الصينية.

وجاءت تحليلات عدد من المحللين الاستراتيجيين إلى أنه في حالة حدوث نزاع نووي بين الطرفين فإن في وسع السوفييت تدمير القوات الجوية والبحرية الصينية تدميراً شبه تام وإلحاق دمار واسع النطاق في مدنهم.

لقد حاول السوفييت إيجاد تحالف إقليمي مناهض للصين وهذا ما عملت عليه مع كل من الهند وتايلند وإندونيسيا، وقد رأت الصين في ذلك إحياء للمنطق الأمريكي في إقامة أحلاف عدوانية ضد التجربة الصينية.

٣- الغزو السوفيتي لتشيكوسلوفاكيا

مع بداية عقد الستينات في القرن العشرين ومع مرور الاتحاد السوفيتي بعدة أزمات داخلية وخارجية لاسيما هزيمته المعنوية في أزمة الصواريخ الكوبية، ومع نمو المشاعر القومية لدى العديد من الدول التي كانت تابعة بشكل مباشر للسياسة السوفيتية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، ظهر تيار في تلك الدول يدعوا لبناء تجربة سياسية مستقلة عن التجربة السوفيتية تزعمته في بادئ الأمر يوغسلافيا ثم تطور ليشمل رومانيا والبانيا والصين، وها هي جيكسلوفاكيا تحاول التملص من القبضة السوفيتية.

لقد عانت جيكوسلوفاكيا من السيطرة المباشرة للاتحاد السوفيتي على مقدراتها، فشكَّل النظام السياسي والاقتصادي فيها كان قد نقل بحذافيره من الاتحاد السوفيتي والقائم على المركزية الشديدة والخضوع التام لسلطة الحزب الشيوعي السوفيتي الذي هو بمثابة القائد والموجه للحزب الشيوعي الجيكي.

وعلى الرغم من وجود هيئات دستورية كالجمعية الوطنية والحكومة وغيرها إلا أنها كانت خاضعة عملياً للحزب الشيوعي. ويشير أحد الخبراء التشيكيين حول التبعية الكاملة لموسكو عندما يصور مثالاً على تلك التبعية "كان عندنا مصانع كاملة ضخمة تعمل بنا على طلب موسكو من أجل تزويد الصين الشعبية بما تحتاج اليه من معدات، وبعد الخلاف الصيني السوفيتي تعطلت هذه المصانع ثم أُرغمنا على تغيير نوعية انتاجها على الرغم من تكاليف ذلك الباهظة، وجيكوسلوفاكيا تزود العديد من الدول بآلاف الأطنان من الاسلحة دون أن تقبض ثمنها، وكنّا مرغمين على شراء السكر الكوبي بأسعار أغلى من السوق العالمية لدعم الاقتصاد الكوبي....".

ونتيجة لتلك السياسة السوفيتية تجاه جيكوسلفاكيا والتي كانت تنفذ عبر حكومة جيكية موالية لموسكو، ازداد الاحتقان الجماهيري لاسيما عندما كانت تستخدم تلك الحكومة مختلف الأساليب لكبت حرية الناس في التعبير عن آرائهم بشكل صريح ورفضهم للوصاية السوفيتية.

وكانت الأوضاع في تلك الدولة تحتاج إلى شرارة صغيرة لتشتعل فيها الثورة ضد التبعية لموسكو. في تشرين الثاني من عام ١٩٦٧ خرج عدد من الطلبة في تظاهرة ذات مطالب محدودة وعادية وهي معالجة انقطاع الكهرباء عن دور الطلبة.

إلا أن قمع هذه التظاهرة الطلابية بالقوة أشعل الحماس لدى الطلبة ومناصريهم ليوسعوا من حجم مطالبهم ومواجهة الحكومة الموالية لموسكو والتي كان يترأسها (نوفوتني). ثم انعكس واقع الشارع المتأزم على اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجيكي والتي كان فيها تيار مناصر لمطالب الشعب في وجوب اتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق استقلالية مقبولة عن السياسة السوفيتية. وقد أجبر (نوفوتني) على ترك منصبه كزعيم الحزب وتعيين شخصية مقبولة شعبياً هو (الكسندر دوتشيك).

ومع محاولة موسكو عبر رجلها المخلص (نوفوتني) الذي رتَّب لانقلاب عسكري فاشل أدى الى عزله تماماً عن الحياة السياسية، انطلقت في ٢٢ آذار ١٩٦٨ الخطوات الجيكية الواثقة باتجاه تجربة اشتراكية مستقلة تنظَّم إلى ركب التجارب الاشتراكية في أوربا فقد ألغيت جميع الأنظمة والقوانين التي تحد من حرية أفراد الشعب، وتم تخفيف الرقابة الصارمة التي كانت مفروضة على الصحف والمطبوعات الأخرى وأُعيد الاعتبار لعدد من السياسيين الذين عدَّتهم السلطة السابقة بأنهم خارجين عن الخط الاشتراكي أو حتى معادين له. ومن بينهم (تسيزار) الذي بدأ يؤدي دوراً مهماً في تلك المرحلة.

في ٢٨ آذار جرى انتخاب (مفوبودا) رئيساً للجمهورية ، وأعلن برنامج حكومته السياسي والذي دعا فيه إلى استقلالية القرار الجيكي، والتعامل مع دول العالم الأخرى على أساس الاحترام والمساواة.

لقيت التجربة التشيكية ترحيباً كبيراً من قبل رومانيا ويوغسلافيا، الأمر الذي أثار مخاوف الاتحاد السوفيتي الذي سارع لانتقاد هذه التجربة من خلال وسائل إعلامه. لم يكتف السوفييت بالنقد الإعلامي، بل دعت موسكو لعقد قمة استثنائية لدول حلف وارشو لمناقشة الوضع في جيكوسلفاكيا. وأعلن الزعماء المجتمعون في موسكو عن قلقهم من موجة التحرر في هذا البلد.

ردَّت القيادة الجديدة في براغ على التحرك باصرارها على السير قدماً في تجربتها مؤكدة على أنها لن تسيء لعلاقاتها مع المعسكر الشيوعي. ولتأكيد هذا الإصرار اتخذت القيادة الجيكية في ٢٩ آيار ١٩٦٨خطوات مهمة في الابتعاد عن الخط السوفيتي إذ أصدرت قرار حق الإضراب، كما بدأت بالإعداد لتطبيق نظام التسيير الذاتي (على وفق النهج اليوغسلافي). في ٢٧ حزيران تصاعدت اللهجة العدائية في جيكيا ضد السياسة السوفيتية وذلك عندما أصدر مؤتمر للكتاب والمثقفين في براغ بياناً عُرِف ببيان (الألفي كلمة)، وفيه تهجم صريح ولاذع ضد المنادين بالتبعية للسوفيت والذين وُصِفوا (بالجبناء والفاشلين الذين لا أخلاق لهم ولا مبادئ سوى خدمة السادة). ثارت ثائرة موسكو على لهجة هذا البيان الحادة، وشنَّت صحفها حملات عنيفة وصفت ما يحدث في براغ بأنه تمرد غير متوقع.

في ١٤ تموز العقد مؤتمر قمة آخر لدول حلف وارشو: ووجهوا رسالة مشتركة إلى حكومة براغ فيها (تحذير صريح وشديد) من مغبة الاستمرار في النهج المعادي (للنهج الشيوعي). ومما جاء في تلط الرسالة "أن تطور الأحداث في بلادكم يثير فينا قلقاً عميقاً، ولا نستطيع الموافقة على وجود قوى معادية تدفع ببلادكم بعيداً عن الاشتراكية، لأن هذا يعرض للخطر مصالح النظام الشيوعي بأكمله". وكان الرد الجيكي بليغاً وجريئاً عندما استقبلت براغ كل من الرئيس اليوغسلافي تيتو في ٩ آب، والزعيم الروماني نيكولاي تشاومسكو في ١٠ آب (وهما من الخارجين عن تبعية موسكو)، وقد استقبلا استقبالاً جماهيرياً كبيراً الأمر الذي عدَّته موسكو تحالفاً أو انحيازاً كاملاً لأعدائها من قبل براغ لابد من اتخاذ اجراء حاسم لمنع ذلك وينهي هذه التجربة ويوقف تأثيرها المستقبلي على باقي دول المعسكر الشيوعي انطلاقاً من ذلك اتخذ في ١٦ آب قرار الغزو السوفيتي للأراضي الجيكية وبدأت موسكو بالتنسيق مع حلفائها لتنفيذ ذلك.

في ٢١ آب ١٩٦٨، استغلت موسكو وجود مناورات عسكرية لدول حلف وارشو على الحدود الجيكية لتجتاح القوات السوفيتية وحلفاؤها (بلغاريا، بولندا، المانيا الشرقية، المجر) الأراضي الجيكية ليبدأ عصر الاحتلال السوفيتي لدولة جيكوسلفاكيا. وتقدر قوات الاحتلال بـ(٦٠٠,٠٠٠) ستمائة الف جندي (٨٠% منهم روس) مع أعداد كبيرة من الطائرات والآليات العسكرية فضلاً عن وجود (٨٠) صاروخ موجهاً نحو براغ.

ونتيجة لحجم القوات الغازية وعنصر المفاجئة لم تبدِ القوات الجيكية أي مقاومة مسلحة، إلا أن الشعب الجيكي استخدم مختلف الوسائل السلمية للتعبير عن رفضه للاحتلال السوفيتي، ونتيجة لهذا الغزو. أُلغيت جميع الإجراءات الإصلاحية التي اتخذت من قبل الحكومة السابقة وتم اعتقال القيادات الحزبية الداعية إلى الاستقلال

وفي الوقت الذي تعاطف فيه الغرب وعدد من دول العالم مع الشعب الجيكي، فإن صُنّاع القرار الأمريكيين تفهموا! الدوافع السوفيتية للقيام بالغزو، ولم تتأخر المحادثات المشتركة بين الطرفين حول مجمل القضايا الدولية لاسيما موضوع الوفاق وفيتنام وغيرها سوى وقت لم يتعد الشهور القليلة.

ثالثاً: الخلاف حول برلين

اعتبرت أزمة برلين من أخطر الأزمات التي أججت الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية، إذ ساهم وضعها الشاذ على الخريطة السياسية الدولية في مواجهات عديدة بين حلفاء الحرب لاسيما في عام ١٩٤٨ عندما حاصرت القوات السوفيتية برلين لمنع الإمدادات الغربية اليها، الأمر الذي زاد من حدة التوتر وتعمق المواجهة بين الغرب والشرق الشيوعي وإن انشغل أطراف المواجهة عن هذه المشكلة بعض الوقت بسبب طبيعة الأوضاع الدولية المتأزمة لاسيما في جنوب شرقي آسيا إلا أنها كانت ضمن الأزمات المزمنة التي تطفو على مسرح الأحداث بين الحين والآخر. وفي عام ١٩٥٨ عادت المشكلة لتكون واجهة أخرى للصراع في الحرب الباردة، فقد أثار خورشوف وضع برلين عندما اقترح الغاء الإشراف الرباعي على المدينة وجعلها مدينة حرة منزوعة السلاح. وعندما اجتمع وزراء خارجية الدول الأربعة المشرفة على برلين في آيار ١٩٥٩ لم يتمكنوا من التوصل لاتفاق حول الموضوع على الرغم من رغبتهم في إيجاد تسوية للمشكلة، لذا دعوا إلى عقد مؤتمر آخر في باريس عام ١٩٦٠.

وعند انعقاد المؤتمر تصاعدت المواجهة السياسية والإعلامية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على أثر تمكن السوفيت من إجبار طائرة تجسس أمريكية من نوع (U2) على الهبوط وأَسِر طيارها في الأراضي السوفيتية، الأمر الذي جعل موضوع برلين في واجهة الصراع. إذ هدد الاتحاد السوفيتي بأنه سيوقع معاهدة منفردة مع المانيا الشرقية والذي سينهي شرعية الوجود الغربي في المانيا الغربية كونها دول احتلال ولتأكيد هذه السياسية السوفيتية توجه خورشوف من باريس (بعد انسحابه من المؤتمر) إلى المانيا الشرقية مباشرة. الأمر الذي أثار اعتقاد الأمريكيين إنه سوف يعلن الصلح بشكل منفرد مع الألمان، لذا فقد أمر الرئيس الأمريكي وزير دفاعه بإعلان حالة الطوارئ في القوات الأمريكية في كافة انحاء العالم. إن دفع الأمور من قبل الطرفين بهذا الاتجاه جعل العالم يتجه مره أخرى نحو أجواء المواجهة العسكرية والحرب الذرية. لذا فقد سارع خورشوف الذي كان يعي تماماً مخاطر سياسته تجاه برلين وما يترتب عليها من احتمالات المواجهة مع الطرف الآخر إلى تهدئة الأزمة. وأنهى زيارته إلى المانيا الشرقية دون أن يثير الموضوع الذي هدد به مسبقاً وجمدت القضية حتى عام ١٩٦١ وهو تاريخ وصول كندي إلى البيت الأبيض.

حددت عوامل عدة تفاعلات قضية برلين في هذه المرحلة من بينها:

- الأوضاع الداخلية غير المستقرة في الاتحاد السوفيتي وتهديد زعامته للعالم الشيوعي بعد تمرد عدد من الدول الشيوعية على تلك الزعامة مثل الصين والبانيا ورومانيا.

- الخبرة الحديثة للرئيس الأمريكي الجديد في مجال السياسة الخارجية، لاسيما أنه وقع في ايامه الأولى تحت ضغط الفشل الذي مُني به في عملية (خليج الخنازير).

لذا فقد حاول السوفيت استغلال الارتباك الذي أصاب السياسية الأمريكية بعد الفشل في كوبا لتحقيق نجاح ما في هذا الوقت وذلك عندما أصدر خورشون انذاراً تضمن تحديد فترة ستة شهور (بحلول كانون الأول ١٩٦١) موعداً نهائياً للتوصل إلى اتفاق حول برلين.

قد يُثار تساؤل: ما الذي يدفع الاتحاد السوفيتي للإلحاح على حل قضية برلين؟

يمكن إجمال عدة عوامل أثرت على السياسة السوفيتية في هذا الجانب من بينها:

الرغبة السوفيتية لتحقيق انتصار سريع وملموس في المواجهة مع الغرب لتدعيم الجبهة الداخلية في الاتحاد السوفيتي وفي داخل الكتلة الشيوعية الذي ظهر عليها علامات التصدع.

والعامل الثاني والمهم هو أن الإحصاءات كانت تشير إلى أن الكيان السياسي في المانيا الشرقية كان مهدداً من عدة جوانب، فالنظام في المانيا الشرقية والذي يقوم على المركزية الشديدة في الاقتصاد والإدارة السياسية، فضلاً عن تبعيته الكاملة للاتحاد السوفيتي ساعد على هروب أعداد كبيرة من سكانه باتجاه المانيا الغربية ذات النظام الاقتصادي والسياسي الحر والمدعوم اقتصادياً من دول غنية وقوية عسكرية مثل الولايات المتحدة وتشير الإحصائيات أنه من الفترة بين ١٩٤٩ - ١٩٥٨ فرَّ أكثر من مليوني الماني شرقي إلى المانيا الغربية وأن معظم هؤلاء يمثلون الخبرات الفنية اللازمة للبناء الاقتصادي.

ولإيقاف هذا النزيف في الخبرات والعمالة الفنية فقد عملت المانيا الشرقية على إغلاق حدودها مع المانيا الغربية والبالغة (٨٥٠) ميل بالأسلاك الشائكة، فضلاً على وضع حقول الألغام وكان الذين يحاولون الهرب يتعرضون أما للقتل أو الاعتقال إلا أنه بالرغم من ذلك فقد فرَّ أكثر من (١٠٣) الف شخص عام ١٩٦١ إلى المانيا الغربية.

لذا اعتبر السوفيت وحلفاؤهم في المانيا الشرقية أن حل قضية برلين ذات أهمية كبيرة بالنسبة لهم ولمستقبل ووجود وبناء دولة المانيا الشرقية، لذا فليس من الغريب أن يهدد وزير خارجية الاتحاد السوفيتي (غروميكو) في تموز عام ١٩٦١، أنه إذا تم توقيع معاهدة صلح مع المانيا الشرقية فإن القوات السوفيتية سوف تنتشر على طول الحدود بين الالمانيتين.

كما اقترح غروميكو أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦١ ارسال قوات دولة محايدة أو تابعة للأمم المتحدة من أجل حل المسألة بعيداً عن أجواء المواجهة المحتملة. إلا أن التهديدات السوفيتية أدت إلى رفع حالة التوتر في العلاقة مع الغرب، لاسيما على الحدود بين الالمانيتين التي يوجد فيها ما يقارب (١١) الف جندي غربي لحماية حدود المانيا الغربية من أي عمل عسكري محتمل.

في ١٣ آب من عام ١٩٦١ خطت المانيا الشرقية خطوة ذات مدلولات سياسية وعسكرية بعيدة المدى، وذلك عندما بدأت بعزل برلين الغربية بالأسلاك الشائكة ثم أسرعت ببناء جدار عازل يفصل شرق المانيا عن غربها، وبررت انشاء الجدار بإيقاف الجواسيس والمتمردين من العبور إلى المانيا الشرقية. وفي أثناء ذلك عزز كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة قواتهما في المانيا، وحصلت عدة مناوشات على الحدود بين الألمانيتين إلا أنها بقيت محدودة.

لقد ساهم جدار برلين بتقليص عدد الهاربين من المانيا الشرقية الأمر الذي ساعد على انتعاش الاقتصاد فيها، كما أزال الأسباب الرئيسة التي كانت تضغط على السوفيت لحل هذه القضية، فضلاً عن أن ظروف دولية استجدت أفرزتها أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ أدت إلى حدوث انفراج في الحرب الباردة وتعميق الأزمة الداخلية في الاتحاد السوفيتي مما خفف من أهمية هذه المشكلة دولياً. لقد مثل الجدار عنواناً تاريخياً للحرب الباردة اذ لخص على الأرض طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب والتي لم تصل إلى حد التوافق حتى سقوط هذا الجدار عام ١٩٩١ والذي مثَّل مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني.